مَنَا مَنَا تَقيْلُ وَفَرْسِينُ

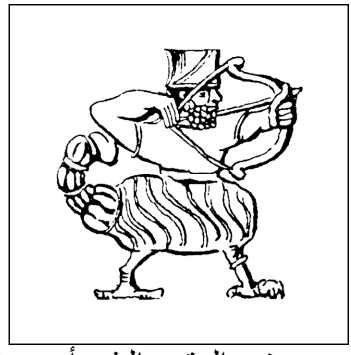

تظاهر السنور بأن عنده
عيد ميلاده
ودعا الدجاجات إلى الوليمة
ولما دخلن بحذر أغلق عليهن
الباب وأخذ يفترسهن
الواحدة تلو الأخرى

أمثال ازوبا رقم ٣٤٨

في الوقت الذي أسس فيه نبوخذ نصر الثاني الإمبراطورية ونظام التوازن الدولي، ولد قوروش الملك القادم للفرس وغازي آسيا الدنيا.

ويخيم ضباب كثيف على أسطورة ولادته وطفولته وشبابه وتبوئه العرش الفارسي واستيلائه على ميديا. وتعتبر الأكثر شهرة منها هو ما جاء به هيرودوت أبو التاريخ[1] وهذا هو مضمونها بشكل مختصر: - كان عند استياغ ملك ميديا «٥٨٥-٥٥٠ ق.م» ابنة اسمها ماندانا، وتنبأ السحرة أنه إذا ولد لها ابن فسيخلع استياغ ويخضع كل آسيا. فقرر استياغ المذعور أن يخدع القدر، وزوج ماندانا إلى مواليه قمبيز الملك الفارسي واثقاً أن فاتح آسيا لا يمكن أن يولد من أوساط الفارسيين، وأنجبت ماندانا ولداً سموه قورش، وكرر السحرة على استياغ نبوءتهم، عندئذٍ أمر استياغ الوجيه غارباغ سراً أن يقتل الحفيد، ولكن غارباغ لم يرد أن يغمس يديه شخصياً بدم الطفل الصغير، فأوكل هذا الأمر إلى ميترادات راعي الملك، وعرف هذا أيضاً من هو قورش فاستبدله بالسر بابنه المولود ميتاً، وربّى ميترادات وزوجته سباكو قورش وأدّبوه كابنهما.

ولما بلغ قورش العاشرة من عمره انتخبه الأولاد أثناء اللعب ملكاً، إلا أن واحداً منهم وهو ابن الوجيه الميدياني ارتمبار لم يشأ أن يخضع لابن الراعي البسيط،

obeikandl.com

عندئذ أمر قورش أن يجلد العاصي بشدة بالسوط. ولأجل هذا الذنب، احضروا قورش إلى الملك استياغ سيده، وتبين لذاك أنه ابن ماندانا وحفيد استياغ، وهدّأ السحرة الملك مصرحين بأن النبوءة قد تحققت وقالوا إن قورش قد انتخبوه للمملكة ولا شيء يخشى منه أكثر، فأبقى استياغ الحفيد عنده ولكن غارباغ الذي لم ينفذ الأمر الملكي عوقب بقساوة حيث أمر سراً بقتل أبنائه وأطعم لحمهم لأبيهم الذي لم يرتب بشيء.

ومرت السنون وكبر قورش وفي عام ٥٥٨ ق.م بعد موت أبيه قمبيز شغل العرش الفارسي. واحتمل الفرس النير الميدياني بمشقة، وغارباغ المتعطش للانتقام حرض قورش على إثارة الانتفاضة ضد استياغ ومن هذا التاريخ كفّ تاريخ قورش عن أن يكون أسطورياً. ونحن نعرف أن الانتفاضة بدأت في عام ٥٥٣ ق.م وانتهت في عام ٥٥٠ م بالانتصار الكامل لقورش واستيلائه على ميديا، وبعد ذلك في عام «٥٤٧-٥٤٦ ق.م» أخضع الفرس ليديا ونشأت الدولة الفارسية القوية المحاربة، والآن أصبحت بابل الضحية المقبلة لتوسعها.

ولم يستعجل قورش لإنزال الضربة الحاسمة لأنه تطلع إلى الاستيلاء على بابل من دون معارك خطيرة، وفي نهاية السنوات الأربعينيات بدأ الفرس بالاستيلاء على الممتلكات الخارجية لبابل ويعزلونها تدريجياً عن العالم الخارجي. وفي الوقت ذاته قام العدد الكبير من العملاء بالدعاية لصالح قورش في بابل نفسها والأوليجاركية البابلية التي تفتقر إلى سلطة قوية قادرة على تأمين سيادتها الطبقية والتي لا ترغب بالتنازل عن امتيازاتها، زيادة على ذلك قاومت بعنف محاولات نابونيد وبيلشاصر لإقامة الديكتاتورية الملكية، ولذلك مال الأوليجاركيون أكثر فأكثر إلى التفكير بأنهم محتاجون إلى حكم قوي يحافظ على امتيازاتهم ورأوا ذلك في قورش فقط.

واستدلوا عقلياً على أن قورش يتحكم بقوات لا تعادلها قوات أخرى في العالم وأنه لا هو ولا فرسانه - الهمج - جربوا مباهج الحضارة، وماذا في الأمر لو قدم التاج البابلي إلى قورش بشروط مناسبة بطبيعة الحال؟ أليس لو صار هذا الهمجي من وراء هذا الشرف العظيم ملكاً شرعياً لبابل المقدسة! سيحافظ على قدسية الحقوق وامتياز الجنسية البابلية ويقيم ذلك «النظام» الضروري للأوليجاركية، ألا يتسنى بهذه الطريقة حسم المعضلة في النهاية دون الضغط على زعماء الشعب المطمئنين؟

وهكذا نضجت في رؤوس بعض ممثلي الأوليجاركية البابلية فكرة حول خيانة الوطن فأوائلهم دفعهم إلى ذلك الحقد على نابونيد وبيلشاصر، وتوالهم الأمل بالهروب من الحرب الدموية العنيفة وثوالثهم الإعجاب بالسفراء الفارسيين الجواسيس.

وكيف فكر البابليون العاديون بهذه النتيجة؟ نعم لم يفكروا بشيء، - المستغرقون بالأعمال اليومية والهموم التي لا تنتهي حول أيام الغد، المخنوقون بالفقر المدقع والعمل الذي لا أمل منه، فهم قليلاً ما اهتموا بمصير الإمبراطورية التي لم يروا منها شيئاً سوى الظلم والفاقه وما من أحد أراد التضحية بحياته لأجل وطن مثل هذا.

أليس على حد سواء كان المزارعون والبستانيون والفلاحون أو الملاكون الصغار واقعين في أحابيل الديون ولمن يدفعون الإيجار والفوائد لسيدهم البابلي أو للسيد الفارسي الغريب، وساد في أوساط طبقات الشعب البابلي العريضة عدم الاكتراث بمصير الوطن واللاتفريقية السياسية، وحتى انبثق عند الكثيرين الأمل بوحي من الفارسيين أن قورش ملك طيب ومعه يصبح العيش سهلاً.

وتنبهت أوساط العبيد الأسرى البابليين للتوكل بكل قوة على قورش والفارسيين فهم تاقوا إلى الحرية والعودة لوطنهم، معلقين أحلامهم على قورش الذي برأيهم سيخلصهم من بابل الداعرة.

ويستطيع نابونيد وبيلشاصر أن يعتمدا في الحرب مع الفرس على المحاربين الكلدانين الذين يهددهم انتصار قورش بفقدان كل امتيازاتهم التي استفادوا منها في عهد الملوك الكلدانين، إلا أن هؤلاء المحاربين أصبحوا سنداً ضعيفاً لأن قاعدتهم الاقتصادية - ملكيات الأرض الصغيرة والمتوسطة - كانت قد تقوضت وانخفض تعداد الكلدانيين القادرين على القيام بالخدمة العسكرية بصورة حادة.

وقصارى القول إن بابل أغنى بلاد العالم والكثيرة والسكان لا أحد يدافع عنها في الحقيقة، واتضح أن قدرتها على المقاومة قد تقوضت من الداخل ونضجت بابل للسقوط، ولا تستطيع أي تحصينات أن تنقذها من الفرس، وبعد الاستيلاء على كل الأقاليم البابلية وقف الفرس عند حدود البلاد، ومضى إلى ناحيتهم بعض العمال «الولاة» البابليين من مبغضي نابونيد وبيلشاصر وكان من تعدادهم أوغبار «غوبري» عامل بلاد غوتيم الواقعة على الحدود مع ميديا وسمحت خيانته بوصول «اقتراب» قورش مباشرة إلى السور الميدي الذي يعترض طريق الفرس إلى داخل بابل.

ولكي لا يخاطر باقتحام هذا الخط القوي من التحصينات استعد قورش للالتفاف عليه من الجوانب، وهنا أعاقه نهر ديالي /هند/ الذي يكون في مؤخرة الفرس وسيعيق انسحابهم إذا خسروا المعركة. وعمل قورش طوال عام ٥٤٠ ق.م على ترويض هذا النهر الذي يتحدث عنه هيرودوت: - عند وصول قورش في الحملة على بابل إلى نهر ديالي وحاول عبوره اندفع أحد جياده البيض المقدسة بجرأة في النهر محاولاً عبوره سباحة ولكن النهر ابتلعه وجرفه معه. فاستاء قورش من النهر بشدة بسبب هذه القسوة وهدده بجعله ضئيلاً لدرجة حتى أن النساء سيستطعن أن يعبرنه دون أن تبتل ركبهن. وبعد أن نطق بهذا التهديد أوقف الحملة على بابل وقسّم قواته إلى قسمين ورتبها في صفوف طويلة على ضفتي النهر، وقاس من ضفتي ديالي بالحبل في اتجاهات مختلفة ١٨٠ قناة من كل جهة وعين لكل مفرزة مكانها

وأمر بالحفر، ومع أن هذا العمل قام به عدد كبير من الناس إلا أنه استغرق لإنجازه الصيف كله، وعندما عاقب قورش نهر ديالي بتقسيمه إلى ٣٦٠ قناة وعندما حل الربيع الثاني مضى إلى بابل[أ]».[2]

ولم تكن استعدادات قورش سراً على البابليين واتخذ الملك نابونيد التدابير لصد العدو وقبل كل شيء حاول رفع الروح المعنوية للقوات وللشعب، وفي هذه الحالة احتفل بعيد رأس السنة الجديدة في بابل في نيسان عام ٥٣٩ ق.م وكان العيد متسماً بالعظمة للغاية وبالولائم حتى أن ذكرها يصادف في المدونات التاريخية، ووزعت على الجنود والمواطنين كمية كبيرة من النبيذ من المخزونات الملكية وحضر نابونيد إلى إيساجيله حصن أعدائه السياسيين وفي معبد إيثور كالام «أخذ بيد الإله بعل» وهذا يعني إعادة انتخابه ملكاً لسنة أخرى. واختزنت بابل بأمره المؤن واستعدت للحصار ولكي لا يشتت القوى لم يعد نابونيد يضع حاميات في المدن الأخرى وأمر بنقل أصنام آلهتها إلى بابل في حالة هجوم الفرس.

ونفذت هذه التدابير حتى الأيام الأخيرة من شهر أيلول عام ٥٣٩ ق.م وأحضرت الأصنام إلى بابل من كيش وخورسار - كالامي وماراد والمدن الأخرى وحاول نابونيد أن يوحي للبابليين بفكرة ضرورة القتال حتى النفس الأخير، إلا أن بارسيب وسيبار وكوت أكبر مدن البلاد بعد بابل رفضت قطعاً إرسال آلهتها إلى العاصمة، وأعطى سكانها نابونيد فكرة واضحة إنهم لا يرغبون بالتضحية ببيوتهم وأرواحهم لأجله بحيث إنهم على العموم لا يعتبرون قورش عدواً ولا يريدون أن يتحاربوا معه، وتقوضت مؤخرة بابل كلياً وفي هذا الوقت قام قورش بالهجوم.

وكان كل انتباه نابونيد مشدوداً إلى الجانب الشرقي من السور الميدي وأقام مع الجيش معسكراً عند مدينة أوبيس مغطياً المعابر عبر الدجلة، ولكن قورش فاقه في الدهاء، فحالما انتهت الفيضانات في أنهار بابل في العشرينات من شهر أيلول التف فجأة حول السور الميدي من الغرب. ووقعت في أيدي الفرس المنشأة الرئيسية وهي قناة بالوكات، وكان الطريق إلى بابل مفتوحاً، وطوق فيلق أوغبار وإلي بلاد غوتيوم المرسل من قبل قورش المدينة التي توجد فيها حامية قوية بقيادة بيلشاصر ابن الملك، وهاجم قورش نفسه نابونيد بالجيش من الوراء ووقعت في نهاية شهر أيلول ذاته المعركة عند مدينة أوبيس وتكبد الجيش البابلي هزيمة ساحقة واستولى الفرس على معسكره وحرقوه وفر نابونيد، ولكن الطريق إلى بابل كان مقطوعاً بالفرس ومغلقاً

أ- إن هذه القصة تبدو وكأنها خرافة، ولكن لا يجب الإسراع بالحكم «بالنتائج» فبالنسبة لمعاصرية كانت معاقبة قورش للنهر إجراء عاقلاً تماماً حتى لو وضعت الإجراءات العسكرية البحتة جانباً، وهكذا بالضبط احتدم الملك الفارسي أحشويرش «إكزركيس» غضباً من مضيق الهلسبونت «الدردنيل» البحري لأن العاصفة شتت الجسر العائم وأمر بجلد البحر بالسياط وألقى في مياهه السلاسل وبعد ذلك أخذ المتوعد يتزلف البحر أيضاً بالهدايا وما من أحد من الناس في ذلك الزمان لا الفرس ولا اليونان اعتبر عمل احشويرش عملاً سخيفاً.

في وجهه فالتجأ إلى بارسيب. وعن الأحداث التالية يحكي هيرودوت هكذا: «عندما وصل قورش إلى قرب المدينة «بابل» خاص معه البابليون معركة ولكنهم هُزموا وتزحزحوا إلى المدينة، ولأنهم عرفوا سابقاً قورش كإنسان مزعج ورأوا كيف يعتدي دون تمييز على جميع الشعوب فإنهم اختزنوا المؤن لسنوات طويلة، ولذلك لم يعيروا أي اهتمام للحصار.

وفي غضون ذلك عانى قورش من الصعوبات ومضى كثير من الوقت ولم تتقدم الأحوال إلى الأمام أبداً، فهل نصحه أحدٌ ما، وهو في وضعه الصعب؟ وهل فهم هو نفسه ماذا عليه أن يفعل؟

فقد تصرف قورش هكذا: وضع قسماً من القوات في المكان الذي يدخل فيه النهر إلى المدينة والقسم الآخر توضع خلف المدينة حيث يخرج النهر منها، آمراً القوات بالدخول إلى المدينة من سرير النهر «مجرى النهر» عندما يرون أنه صار قابلاً للمرور. وهكذا وزع هو القوات: وهكذا أعطى الأمر: أما هو نفسه فتراجع مع المحاربين غير القادرين على القتال وجاء إلى البحيرة «التي حفرتها الملكة نيتوكريس وهذا يعني قناة بالوكات» وفعل قورش بالنهر والبحيرة مثلما فعلت سابقاً الملكة البابلية وحول بواسطة القناة النهر إلى البحيرة التي تحولت إلى مستنقع، وعندما انحسر النهر صار سريره «مجراه» القديم قابلاً للمرور، ولما تناقص نهر الفرات إلى الحد الذي لا يغمر المرء إلى منتصف الفخذ دخل الفرس القائمين على طول النهر من سريره إلى بابل. ولو عرف البابليون مسبقاً أو لاحظوا بطريقة ما ماذا فعل قورش لسمحوا للفرس بالدخول إلى المدينة ثم أبادوهم بقسوة، ولأجل ذلك كان عليهم فقط إغلاق جميع البوابات التي تؤدي إلى النهر أما هم فيحتلون الكورنيشات الممتدة على طول ضفاف النهر وكانوا قد قبضوا على الفرس كالسمك في السلة. والآن مثل الفرس أمامهم فجأة كما يقول سكان ذلك المكان وبسبب اتساع المدينة لم يعرف البابليون الساكنون في المركز أن سكان الأطراف قد وقعوا في الأسر. وبمناسبة العيد كانوا في ذلك الوقت يرقصون مبتهجين طالما لم يعرفوا في النهاية بالحقيقة الكاملة بما حدث، وهكذا افتتحت بابل في المرة الأولى»[3] وهذه الرواية مبنية على أن هيرودوت قد أخبره البابليون أنفسهم أحفاد وأحفاد أحفاد أولئك الذين كانوا شاهدي عيان لدخول الفرس إلى بابل ومن المحتمل أن حصة الخيال هنا موجودة ولكنها موجودة وحقيقية، وبالمناسبة إن تحويل مياه الفرات لم يكن عملاً مهماً فللقيام بذلك يلزم فقط فتح هويسات «بوابات القناطر» قناة بالوكات. وذلك ما فعله قورش حسب أقوال هيرودوت والمدونات التاريخية البابلية تلتزم الصمت حول الأحداث التفصيلية، وقيل فيها فقط إن سيبار استسلمت للفرس من دون قتال في ١٠ تشرين أول عام ٥٣٩ ق.م وفي ١٢ تشرين أول عام ٥٣٩ ق.م دخلت قوات أوغبار وإلى بلاد غوتيوم بلا قتال مدينة بابل، وقبض على بيلشاصر ابن الملك الذي كان يقيم وليمة في القصر في ذلك الوقت على حين غرة وقتل، ويصف الإصحاح الخامس من سفر النبي دانيال وليمة بيلشاصر هكذا: «بيلشاصر الملك صنع وليمة

عظيمة لعظمائه الألف وشرب خمراً قدام الألف وإذ كان بيلشاصر يذوق الخمر أمر بإحضار آنية الذهب والفضة التي أخرجها نبوخذ نصر أبوه من الهيكل الذي في أورشليم ليشرب بها الملك وعظماؤه وزوجاته وسراريه، حينئذٍ أحضروا آنية الذهب التي أخرجت من هيكل بيت الله الذي في أورشليم وشرب بها الملك وعظماؤه وسرارية. كانوا يشربون الخمر ويسبحون آلهة الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب والخمر. في تلك الساعة ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت بإزاء النبراس على مُكَلَّس حائط قصر الملك والملك ينظر طرف اليد الكاتبة. حينئذٍ تغيرت هيئة الملك وأفزعته أفكاره وأنحلت خرز حقوية واصطكت ركبتاه. فصرخ الملك بشدة لإدخال السحرة والكلدانيين والمنجمين فأجاب الملك وقال لحكماء بابل «أي رجل يقرأ هذه الكتابة ويبين لي تفسيرها فإنه يلبس الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقه ويتسلط ثالثاً في المملكة» ثم دخل كل حكماء الملك فلم يستطيعوا أن يقرؤوا الكتابة ولا أن يعرّفوا الملك بتفسيرها. ففزع الملك بيلشاصر جداً وتغيرت فيه هيئته واضطرب عظماؤه...» أما الملكة نيتوكريس فدخلت بيت الوليمة ونصحت بيلشاصر باستدعاء دانيال وأحضروا دانيال ووعده الملك بإلباسه الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقه ويتسلط ثالثاً في المملكة، وهذا يعني نائباً لنابونيد وبيلشاصر إذا استطاع أن يقرأ الكتابة ويعرفه بتفسيرها، فأجاب دانيال وقال قدام الملك لتكن عطاياك لنفسك وهب هباتك لغيري لكني أقرأ الكتابة للملك وأعرفه بالتفسير. وذكر بيلشاصر بعدم شرعية تصرفات نبوخذ نصر «يعني نابونيد» وتجبره وكذلك تدنيسه لآنية هيكل أورشليم وتابع دانيال: «أما الله الذي بيده نسمتك وله كل طرقك فلم تمجده. حينئذٍ أرسل من قبله طرف اليد فكتبت هذه الكتابة وهذه هي الكتابة التي سطرت: مَنَا. منا تقيل. وفرسين. - وهذا تفسير الكلام. منا. أحصى الله ملكوتك وأنهاه. تقيل وُزِنتَ بالموازين فَوُجِدتَ ناقصاً. فرس. قُسِّمت مملكتك وأعطيت. لمادي[أ] وفارس» حينئذٍ أمر بيلشاصر أن يُلبسوا دانيال الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقه وينادوا عليه أن يكون متسلطاً ثالثاً في المملكة وفي تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين».

بالتأكيد لا تثير الرواية التي تحمل الطابع الأسطوري المجازي الشك. ولكن كل رواية تغاير الأخرى، وفي حقيقة الأمر لا يوجد هنا أي حقائق ملموسة متعلقة بسقوط بابل ومصرع بيلشاصر. لأن المؤلف[ب] اهتم لا بالحقيقة نفسها وإنما بالفكرة التاريخية الفلسفية العميقة للحدث التي هي الهدف من تطويع المجازية والشاعرية بقوة وبخاصة باللغة الآرامية لموضوع وشكل هذا الإصحاح من سفر دانيال.

وتدور الرواية بأكملها حول فكرة القضاء المحتوم لبابل وبيلشاصر وسلطته المعبَّر عنها بدقة ووضوح في الكلمات «مَنَا مَنَا تَقَيْلُ وَفَرْسِينُ» وتعني بالآرامية

أ- ميديا - المترجم

ب- مؤلف الرواية وليس مؤلف الكتاب - المترجم

«معدود معدود، وموزون، ومقسوم» هذا ما فهمه على طريقته الخاصة وأبلغه لنا النبي دانيال وهكذا في ١٢ تشرين أول عام ٥٣٩ ق.م دخل الفرس إلى بابل وصور الأمر في المدونات التاريخية البابلية الرسمية هكذا: وكأنه لم تكن هناك حرب بشكل عام مع قورش أما إذا حصلت بعض الحوادث المنفردة مثل المعركة عند مدينة أوبيس فالمسؤول عنها كان فقط نابونيد وليس بابل بأي حال من الأحوال.

وتبنى قورش عن طيب خاطر رواية الأوليجاركية البابلية لأنها تجاوبت تماماً مع مصالحة واجتهد أن يعزز أمورها. واتخذ أوغبار عامل غوتيوم القائد الأعلى للقوات التي دخلت بابل على الفور التدابير لتلافي حدوث المجازر والنهب في المدينة.

وتتحدث مدونات الأخبار «حتى نهاية شهر تاشريت «وهذا يعني حتى ٢٦ تشرين أول عام ٥٣٩ ق.م» طوقت تروس «يعني جنود» بلاد غوتيوم بواية إيساجيله ولم يسمح بوجود أي سلاح في إيساجيله والمعابد ولم تخرق الطقوس أبداً»

ولما علم نابونيد بسقوط بابل ومصرع بيلشاصر غادر بارسيب راجعاً إلى بابل وأستأسر طوعاً وعرف أن الاستمرار بالمقاومة لا معنى له، وفي الوقت نفسه نجح المحتلون مع الأوليجاركيين البابليين باستمالة الرأي العام وأعدوا لقورش استقبالاً احتفالياً مهيباً في بابل، ولم تكن الفرحة في بابل ينقصها المتفرجون المتبطلون الحريصون على رؤية المشاهد وحضور الولائم المجانية «وفي الثالث من أراخسامنو «٢٩ تشرين أول عام ٥٣٩ ق.م - تتابع المدونات التاريخية - دخل قورش بابل وكانت «الشوارع» أمامه مفروشة بالأغصان وأقر السلام في المدينة وأعلن قورش السلام لكل بابل».

واستهل قورش إقامة السلطة الفارسية الجديدة بتعيين الوجيه الفارسي غاوبارفو الذي سماه البابليون غوبار واليونان غوبرييم مرزباناً «بالبابلية بل - باهاتي Bahati - Bel - حاكم إقليم» على بابل وما وراء النهر وهذا يعني كل الإمبراطورية البابلية الحديثة وبدوره عيّن المرزبان الهيئات الحاكمة في بابل.

وأرسل نابونيد الأسير من دون ضجة زائدة إلى منفى محترم في كرمان النائية في شرق إيران حيث أنهى أيامه. ولم يضمر أحد الشر لقورش شخصياً وأشارت المدونات فيما بعد «في ليلة «أراخسامنو «٦ تشرين الثاني عام ٥٣٩ ق.م» مات أوغبار» عامل بلاد غوتيوم وفاتح بابل و «[٢٧ أدارو «٢٠ آذار عام ٥٣٨ ق.م» ماتت [قرنية] الملك: ومن ٢٧ أدارو إلى ٣ نيسانو «من ٢٠ إلى ٢٦ آذار عام ٥٣٨ ق.م» كان الحداد في بلاد أكاد وحلق جميع الرجال رؤوسهم» ويدور الحديث هنا عن وفاة الملكة نيتوكريس أرملة نبوخذنصر الثاني ونابونيد التي تمتعت بشعبية كبيرة

عند البابليين، وسمح قورش بلباقة عالية للغاية بدفنها بصورة احتفالية وأعلن الحداد عليها لسبعة أيام.

ووردت عند هيرودوت طرفة متعلقة بموت نيتوكريس تناقلتها أوساط البابليين بعد عشرين عاماً في عهد الملك داريوس: «اخترعت تلك الملكة «نيتوكريس حيلة: وضعت لنفسها فوق إحدى بوابات المدينة تلك البوابة التي يمر الناس فيها بشكل كثيف تابوتاً، وكتبت على التابوت الكتابة التالية «إذا احتاج أي من الملوك الذين سيأتون بعدي إلى المال دعوه يفتح التابوت ويأخذ منه المال بقدر ما يشاء، وإذا لم يحتج فعليه أن لا يفتح التابوت بأي شكل من الأشكال. لأنه لن يستفيد من ذلك. وظل هذا التابوت سليماً «غير ممسوس» حتى عهد الملك داريوس. وظهر أن داريوس لا يشبع أيضاً ولم يستخدم تلك البوابة ولم يأخذ المال الموضوع في التابوت ومع أن ذلك لا يخطر على البال فهو لم يستخدم تلك البوابة على الإطلاق لأن الجثة ستكون فوق رأسه أثناء عبوره للبوابة، وفتح التابوت ولم يجد مالاً في داخله وإنما وجد الجثة وكتابة تنص على أنه «لو لم تكن شرها للمال ولا مملوءاً طمعاً خسيساً لما فتحت توابيت الموتى» وهكذا كانت بحسب الروايات تلك المملكة»[4].

وكما تم الحديث سابقاً حافظت الأوليجاركية البابلية على مبدأ انتخاب الملك واتخذ قورش مظهر المستعد لتلبية رغبتها، ولم يتخذ لقب ملك بابل وبقي العرش البابلي بعد إسقاط الملك نابونيد حتى رأس السنة الجديدة القادم شاغراً شكلياً وأرخت وثائق العمل البابلية في ذلك الوقت «سنة بداية قورش ملك البلدان» الرابع من نيسان ألسنة التالية «٢٧ آذار عام ٥٣٨ ق.م» وفي اليوم التالي بعد انتهاء الحداد على الملكة نيتوكريس بدأ عيد رأس السنة الجديدة وتلخص بانتخاب ملك بابل وانتخب قمبيز الابن الأكبر وخليفة قورش بمراعاة الطقوس الدقيقة، وبهذا الشكل نالت بابل ملكاً شرعياً إلا أنه تابع لقورش وبهذه المناسبة حصلت السنة الجديدة على اسم «السنة الأولى لقمبيز ملك بابل بينما والده قورش ملك البلدان»[5].

وظهرت في هذا الوقت أهجية سياسية مكتوبة بشكل تصويري بالبابلية وللبابليين ممثلي الأوليجاركية البابلية «قصيدة عن نابونيد كتبت فيها بلهجة سلبية عنيفة «الفضائح» التي قام بها نابونيد في فترة تملكه وفي النهاية كالت بالثناء لكل من قورش وقمبيز اللذين بإرادة الإله مردوك حررا بابل من الأشرار نابونيد وبيلشاصر وعاقبا شركاءهم وكانت تلك الأهجية تقديراً من الأوليجاركية الموالية للفرس للأحداث مستوحاة بقوة من البابليين السذج الضيقي التفكير.

ونظم قورش مثل هذه الدعاية لصالحه بالكامل مذعناً شكلياً للأوليجاركية غير أنه نفذ خطه الخاص شيئاً فشيئاً بالنسبة لبابل. فقبل كل شيء حافظ على سلطته العليا عليها. وكانت دائرة نفوذ قمبيز كملك لبابل محدودة في أراضي بلاد أكاد وهذا يعني بابل المدينة - الدولة أما على بقية أراضي الإمبراطورية البابلية بما فيها مدن أوروك ونيبور وأور فاعترفت فقط بدائرة نفوذ قورش ملك البلدان ومرزبانه غوبار، وكان قمبيز شخصية صورية بحتة على العرش البابلي وهو نفسه لم يتعلق بالعرش البابلي

بجد ولم يعتبر أنه من الضروري إخفاء ذلك وبقي الوضع على تلك الحال خلال عشرة أشهر، وبعد ذلك استعفى قمبيز الذي مل من تلك المهزلة واتخذ قورش لقب «ملك بابل» وبمقتضى ذلك سميت تلك السنة بالسنة الأولى لتملك قورش ملك بابل ملك البلدان.[6]

ولا يمكن لأي كان بعد الآن أن يتحدث عن انتخاب الملك في بابل. واضطرت الأوليجاركية أن تبتلع هذه الجرعة المرة، وفوق ذلك ظهرت في هذا الوقت وثيقة أخرى مكتوبة بالبابلية وموجهة للبابليين وهي في هذه المرة «بيان قورش» الرسمي الذي صاغته أيضاً الأوليجاركية الموالية للفرس. على الرغم من أن بعض الموضوعات المطروحة فيه لا تروق لها، وفي مقدمة البيان المسهبة إلى حد ما يصورون مرة أخرى «فضائح» نابونيد والإساءات التي سببها للإله مردوك ومعبد إيساجيله وبابل، وعندما نفد صبر الإله مردوك وجد قورش ملك أنشان «وهذا يعني الفرس» وسلمه السلطة على الشعوب وفي النهاية كلفه برعاية بابل، الشعب الذي لاقى بسعادة عظيمة منقذه من الملك نابونيد الكافر، وأُلِحقَ في نهاية البيان صلاة إلى الآلهة البابلية والمنعم عليه قورش السعيد وابنه وخليفته قمبيز وفي هذا الإطار وضع النص الخاص للبيان المكتوب من شخص قورش.

وهو يكشف عن تلقيب قورش الموضوع من أجل الوئام البابلي «أنا - قورش ملك الجميع، الملك العظيم، الملك الجبار، ملك سومر وأكاد، ملك الجهات الأربع، ابن قمبيز العظيم ملك أنشان نجل شيشبيش «شيش - بيش» الملك العظيم ملك أنشان العائلة الجليلة الخالدة التي يحب حكمها الآلهة بعل ونابو وحكمها مستحق لسعادتهم القلبية».

ومن قراءة هذه الألقاب يمكن التفكير بأن قورش، ليس بحسب سلسلة النسب، ليس فارسياً بتاتاً، وليس فاتحاً أجنبياً وهو نفسه ليس الملك البابلي التليد، وكل هذه الأفكار حاول الإيحاء بها البابليون مؤلفو «البيان».

وبعد ذلك في «بيان» باسم قورش يتحدث كيف دخل جيشه العرمرم بسلام إلى بابل «وحذفت بالطبع جميع التفاصيل المعيبة للبابليين» ويأتي بعد ذلك تعداد للتدابير التي قام بها قورش والتي تؤكدها المصادر الأخرى كلياً، وادعى قورش بدور الملك - المحرر ووفى بوعده هذا الشعوب التي خضعت لسلطانه وهي حادثة استثنائية في التاريخ ولكنها توضح كلياً السعي للسيطرة العالمية.

وفهم قورش جيداً أنه بواسطة القوات الفارسية لوحدها فقط لا يمكنه تحقيق هذا الهدف بالقوة وفهم كذلك أن بلدان الحضارة القديمة التي صارت هدفاً للاحتلال الفارسي مصابة بمرض قاتل وجاهزة ليختبر فيها إنقاذه وإبراءه. واستفاد قورش من هذه الظروف ببراعة بينتها انتصاراته الحربية المدهشة وكذلك سمعته. ك «أب» و «محرر» التي تعززت له في ذاكرة ليس الفرس فقط وإنما عند كل الشعوب التي خضعت له بما فيها البابليون واليونان واليهود.

ويتحدث قورش في «البيان» «من [...] إلى آشور وسوز وأغاد وأشنون وزامبان وميتورنو حتى حدود بلاد كوت والمدن [التي في تلك البلاد] والدجلة التي أُسّست منازلها منذ الماضي السحيق والآلهة التي سكنت فيها أعدتها إلى أماكنها وبنيت لها مساكن خالدة وجمعت جميع أناسها «سكانها» وأعادتهم إلى قراهم وآلهة سومر وأكاد التي نقلها نابونيد إلى بابل أنزلتهم بسلام بأمر من الإله مردوك السيد العظيم في قصورهم منازل سعادة القلب».

وابتدأ قورش على الفور بعد سقوط بابل بإنجاز هذه التدابير التي لها أهمية عظمى بالنسبة لمستقبل الإمبراطورية الفارسية التي أسسها «من كيسليم إلى آذار - الشهر «من ٢٥ تشرين الثاني حتى ٢٣ آذار عام ٥٣٨ ق.م» أعيدت آلهة بلاد أكاد التي نقلها نابونيد إلى بابل مقراتها» - وتخبر المدونات التاريخية البابلية - وانتزعت هذه الخطوة استحسان جميع البابليين لأنها رمزت إلى إعادة السلام والنظام المألوف، وعلاوة على ذلك صارت سبباً لاحتفالات دينية وأعياد لا نهاية لها بمناسبة وداعها من بابل واستقبالها في المدن التي أعيدت إليها الآلهة ولكن تحت ستار هذه الضوضاء وفى قورش بوعده للأسرى العبيد البابليين ومنحهم الحرية وحق العودة للوطن. وكانت تلك هي الجرعة المرة الثانية التي اضطرت الأوليجاركية البابلية إلى تتجرعها. ولكنها لم تجرؤ على معارضة قورش وعلاوة على ذلك كان تحرير الأسرى كما رأينا فقط في «البيان» قد أعلن تنفيذ الإرادة الإله مردوك.

وفهم قورش أن الأسرى أخيراً وليس آخراً «أي في نهاية المطاف» يتطلعون ويرغبون بالعودة إلى الوطن وإن الكثيرين فهم بقوا في بابل حيث ولدوا وتعودوا السكن، غير أنهم الآن لم يبقوا عبيداً وإنما ناساً أحراراً منَّ عليهم قورش بالحرية وهذا ما حصل. فقد بقي في بابل كثير من اليهود والسوريين وغيرهم من الأسرى السابقين الذين صاروا سنداً للحكم الفارسي في البلاد.

ووعد قورش البابليين بتخليصهم من نير نابونيد وأتباعه والأقوال تبعتها الأفعال. فالقضاء على نظام نابونيد لامس قبل كل شيء المسائل الدينية. وهنا فتح قورش الحرية الكاملة، فباسم قورش هدمت المعابد التي أعاد بناءها نابونيد وبنيت من جديد بالشكل الذي كانت عليه أيام نبوخذ نصر الثاني، وفي الوقت نفسه استعيدت طقوس الخدمة الدينية السابقة.[7]

وتصرف قورش بكثير من الحذر بالنسبة لبعض الأشخاص المرتبطين بنابونيد وبيلشاصر وانهالت اللعنات رسمياً على رؤوسهم والتهديد بالعقوبات الصارمة، ولكن لم يتبعها عملياً أي اضطهادات واكتفى قورش بأنه أبعد من جهاز الدولة أكثر الأشخاص الممقوتين وزيادة على ذلك قام بهذا لصالح أعدائهم السياسيين أكثر من مصلحته الخاصة: فهؤلاء الأشخاص الذين تُرِكوا من دون ملكية كانوا مستعدين لخدمة أي كان بمن فيهم الفرس، وعلى العموم تحاشى قورش، إلا عند الضرورة الملحة، التدخل في الشأن الداخلي البابلي، وأبقى في الجهاز الإداري وبخاصة مراكز الهيئات الإدارية للمدن «الحاكميات» بشكل خاص على الأشخاص أنفسهم الذين كانوا في عهد نابونيد. وحافظ قورش على وظيفة الأوصياء الملكيين على المعابد التي أحدثها نابونيد وحتى لم يغير الوجهاء الذين عينهم في هذه المناصب. وكان تعداد الفرس في جهاز الدولة في بابل على عهد قورش وقمبيز قليلاً جداً، حتى العاملون في المزارع الخاصة بالملك وولي العهد قمبيز في بابل كانوا بابليين وليس فرساً. وبغض النظر على أنه لم تحصل أي اضطهادات في بابل في البداية فإن الرعود والصواعق ألقت الرعب بأنصار نابونيد وبيلشاصر لدرجة لا يستهان بها. وبهذا الخصوص يتميز التاريخ الذي حصل مع الشخص المعروف لنا قديماً وهو إيتي - مرودك بالات ابن نابو - آخي - أدين نجل اكيبي فإن ارتباطات بيت اكيبي مع السلالة الملكية السابقة وبخاصة مع الملك بيلشاصر كانت معروفة لكل بابل وخاف إيتي - مردوك - بالات بشدة عندما استولى الفرس على بابل وفي ربيع عام ٥٣٨ ق.م سافر بصحبة بعض عملائه متجهاً نحو بلاط قورش في ميديا ملتمساً بتوسل العفو لنفسه، ولم يكن إيتي - مردوك - بالات متيقناً من نجاح سفرته فأبقى ملكية العائلة عند زوجته نوبتا وكابن بابل الحقيقي اتخذ التدابير، حتى وفي حال موته، على يد الفرس المتوحشين لا تحل خسارة لا تعوض ببيت اكيبي.

وسافر بالطريق مع كمية غير كبيرة من المال حتى لا يفقد الكثير منه في حال الكارثة إلا أن مخاوفه كان فيها مبالغه وما من أحد عزم على أن يعاقبه بالموت، ولكن بدلاً من ذلك لم يكن الوجهاء الفارسيون على الإطلاق مثل أولئك الهمج «المتوحشين» كما تراءى له. وسحبوا منه الأموال باستمرار. وفهم المصرفي الخبير المطلع جيداً على بلاط نابونيد وبيلشاصر مباشرة أن هذا لا فائدة ترجى منه ولكن على كل حال لم يخاطر بكل أمواله وبدلاً من ذلك حتى لا يطلب الأموال من البيت استدانها من بعض معارفه البابليين. وهكذا وجد نفسه في ميديا وكان الحساب بسيطاً فإذا تعامل الجميع فإنه يسدد ديونه من المقترضين «بالطبع إذا بقي هؤلاء أحياء» في بابل. وكان من الخطر إبقاء الكثير من الأموال الخاصة عنده لأنها تغري الفرس الذين يمكن أن يقتلوه.

وأمضى إيتي - مردوك - بالات أكثر من سنتين في ميديا وفقط في صيف عام ٥٣٦ ق.م حصل على العفو العام وعاد إلى بابل ولم يسافر فيما بعد إلى إيران

ولا مرة «من عام ٥٣٣ إلى ٥٢٣ ق.م» ولكنه في مجال الأعمال لم يخف على رأسه.[8]

ولم تتعرض حياة العمل في بابل إلى أي هزات من المحتل الفارسي وعلى العكس فإقرار السلام وإدخال الإمبراطورية في حقوق الاتحاد الذاتي بقوام الدولة الفارسية المترامية الأطراف أعطيا دفعة جديدة للانتعاش الاقتصادي.

وأصبحت بابل إلى جانب برسيبوليس وسوز وأكباتان واحدة من أربع عواصم الملك الفارسي وجَنَت من ذلك ثماراً وفيرة. وظهر أن تقدير الأوليجاركية البابلية لقورش قد تحقق بربح زائد إلا أن الحياة المسالمة الرغيدة لم تستمر طويلاً، فبعد السكرة تأتي حتماً الفكرة، فالأشراف الفرس الذين أسكرتهم الانتصارات السهلة والثروات الخيالية التي وقعت في أيديهم استطعموا بسرعة من خيرات المدنيَّة ولم ينووا إشباعاً لرغباتهم الاكتفاء بالقليل الذي يمدهم به الأغنياء البابليون وازدادت شهيتهم وبسرعة شعرت بذلك في نفسها الشعوب الخاضعة بمن فيهم البابليون أيضاً.

وتوفي قورش في عام ٥٣٠ ق.م أثناء حملة في آسيا الوسطى ضد ألماساغييتين - ولأول مرة يصطدم الفرس بالشعوب التي لم ترد أن تكون خاضعة ويتكبدوا الهزيمة. واعتلى قمبيز الابن الأكبر لقورش العرش الفارسي وورث أيضاً لقب ملك بابل وحتى لم ينوه أحد بأي انتخابات للملك البابلي. ولم يمتلك قمبيز لباقة أبيه السياسية وعلى العموم لم يعتبر أنه من الضروري تمويه السيادة الفارسية وليس عبثاً سماه المغلوبون «الطاغية» وليس «الأب» مثل قورش.

وفي عام ٥٢٥ ق.م تحرك الفرس ضد مصر الدولة العظمى الوحيدة في الشرق الأوسط المحافظة على استقلالها وبأمر من قمبيز اشتركت في الحملة وحدات شبه عسكرية بابلية واستولى الفرس على مصر في مهلة قصيرة ولكن كان هذا آخر نجاح فارسي كبير.

وتعاظم السخط العميق بين أوساط الشعوب المغلوبة وبدأ الاستياء الذي أثارته أعباء الخدمة العسكرية في فارس نفسها واستبداد الحكم الملكي كذلك.

وأخيراً حدث في «آذار عام ٥٢٢ ق.م انقلاب في فارس حيث أحد المجوس واسمه غوماتا «هو نفسه سمير ديس» إنه خلف باردي الابن الأصغر لقورش الذي قتِلَ سراً بأمر من قمبيز واستولى على العرش الفارسي وللحال تحرك قمبيز مع الجيش من مصر إلى فارس ولكنه مات في الطريق في ظروف غامضة حيث زعموا أنه سقط من على حصانه ووقع على سيفه.

وغلّف الغموض هوية غوماتا ومن غير المستبعد أنه كان في الحقيقة باردي نفسه وليس المدعي.

واعترفوا في بابل ببارديا أو بارزي حالاً بعد وصول نبأ الانقلاب، مع أن قمبيز كان ما يزال حياً، وهكذا بسرعة وسهولة اعترفت بقية الشعوب المغلوبة ببارديا وهذا يوضح على الأغلب عدم شعبية قمبيز، ولان باردي أرسل على الفور بعد استيلائه على الحكم إلى كل البلدان مرسوماً حول إعفاء المكلفين لمدة ثلاث

سنوات من الخدمة العسكرية. ولكن في ٢٩ أيلول قتل الأرستقراطيون الفارسيون باردي - غوماتا واختاروا داريوس ابن هيستاسب أحد الذين اشتركوا في المؤامرة الذي ينتمي إلى سلالة الأخمينين الملكية، وعلى الفور قام الكثير من شعوب الإمبراطورية الفارسية بما فيهم الفرس أنفسهم ضد داريوس الذي بقي إلى جانبه فقط الارستقراطية الفارسية والجيش، وبدأت الحرب الأهلية الطويلة. وقامت بابل أيضاً عند أول الأخبار عن مقتل بارزي وتدل وثائق العمل التاريخية أن البابليين اعترفوا في ٢٠ أيلول عام ٥٢٢ ق.م ببارزي ملكاً على بابل وبعد ٤ أيام على مقتله كان نبوخذ نصر الثالث ملكاً عليهم وحررت أقدم الوثائق المعروفة المؤرخة باسمه بتاريخ ٣ تشرين أول عام ٥٢٢ ق.م[9] وهناك روايتان حول انتفاضة بابل: الأولى بناء على القصص الشفهية للبابليين، والأخرى تعود إلى هيرودوت وهي مؤكدة بالوثائق البابلية المؤرخة التي تحتوي على الكتابة البهستانية لداريوس نفسه ورواية هيرودوت باختصار هي: - حالما استولى المدعي المجوسي سمير ديس «غوماتا» على الحكم في فارس بدأ البابليون بالاستعداد للانتفاضة وحصار الفرس الذي لا مفر منه لبابل، وللاحتفاظ لأطول مدة ممكنة باحتياطات المؤن قتلوا هم أنفسهم جميع نسائهم باستثناء الأمهات والزوجات، واندلعت الانتفاضة مباشرة بعد مقتل سمير ديس وتملك داريوس، ولم يتأخر الفرس عن محاصرة بابل، ولما شعر البابليون بأنفسهم أنهم في أمان سخروا بهم من أعلى أسوارهم «لماذا أيها الفرس تجلسون هنا بلا جدوى ولا ترحلون؟ ستستولون علينا من كل بد عندما تلد البغال».

وهكذا مضت سنة وسبعة أشهر ولم يستطع داريوس الاستيلاء على بابل، ولكن في الشهر العشرين من الحصار ولدت على حين غفلة بغلة عند زوبير ابن مهاباز وهو واحد من الفرس السبعة المشتركين بقتل سمرديس. وفهم زوبير سخرية البابليين وقرر أنه الآن يجب أن تسقط بابل، فجدع أنفه وقص أذنيه وحلق شعره في حلقات وشَرَّط جسمه بالسوط ووقف أمام داريوس بذلك الشكل، فخاف ذلك، ولكن زوبير طمأن الملك وشرح له خطته بالاستيلاء على بابل واتفق مع داريوس على التفاصيل وبدأ العمل، وتحت ستار أنه هارب شوهه داريوس تسلل زوبير إلى بابل وفي المجلس الشعبي حدّث البابليين بقصته المختلقة وتوسل إليهم أن يعطوه إمكانية الانتقام من داريوس. فصدقه البابليون وسلموه قيادة مفرزة كما اشترط مع داريوس مسبقاً وقام زوبير بثلاث انطلاقات[أ] وأباد مفارز ضخمة من القوات الفارسية المساعدة، عندئذٍ سلمه البابليون المعجبون به القيادة العامة والدفاع عن الأسوار. وفي

أ- هجمات مفاجئة من المحاضرين - المترجم

هذا الوقت في اليوم السابع والخمسين بعد «خيانة» زوبير بدأ داريوس بالاقتحام العام لبابل، وبالاستفادة من أن انتباه البابليين كان مشدوداً إلى الموقعة فتح زوبير بوابة الإله زابابا وبوابة الإله بعل اللتين اندفع الفرس من خلالهما إلى بابل، وسقطت بابل.

وأمر داريوس بمسح أسوار بابل عن وجه الأرض ونزع أبوابها. ورُفع بأمره ٣٠٠٠ من أكبر أشراف بابل على الخوازيق، أما الآخرون فعفا عنهم وحتى أرسل إليهم ٥٠٠٠٠ امرأة من البلاد الأخرى بدلاً من اللواتي قتلوهم في بداية الحصار لكي يكون لهم أعقاب. وتلقى زوبير نظير خدمته تشاريف «تكريمات» لم يسبق لها مثيل، وسلمه داريوس قيادة بابل مدى الحياة وأعفاه من دفع الجزية.[10]

إن رواية داريوس الملك نفسه ليست رومانسية إلى حد ما ولكنها أكثر موثوقية بدلاً من ذلك: - أعلن البابليون مباشرة بعد مقتل غوماتا شخصاً اسمه نيدينتو - بعل ابن آنيري الذي ادعى أنه نبوخذ نصر ابن نابونيد ملكاً عليهم، وبالتالي كما يؤكد هيرودوت استعدوا مسبقاً للانتفاضة، وبمقتضى الوثائق المحفوظة أرخ البابليون «بسنة بداية تملك نبوخذنصر الثالث ملك بابل» من ٣ تشرين الأول إلى ٨ كانون الأول عام ٥٢٢ ق.م.

وبعد قمع الانتفاضة في عيلام تحرك داريوس إلى بابل في ١٣ كانون الأول عام ٥٢٢ ق.م وهزم البابليين على الدجلة. في ١٨ كانون الأول عند مدينة زازان على الفرات وبعد ذلك استولى على بابل ووقع نيدينتو - بعل في الأسر وأعدم، ومن ٢٢ كانون الأول أرخت الوثائق البابلية بداريوس أيضاً ملكاً لبابل - ملك البلدان وفي أثناء خوض داريوس القتال مع العصاة في الأطراف الأخرى من الإمبراطورية الضخمة بدأ البابليون بانتفاضة جديدة.

وادعى الأرمني أراخا ابن خالدينا أيضاً أنه نبوخذ نصر ابن الملك نابونيد وأثار العصيان في مناطق دوبالا في جنوب البلاد وكان معتبراً في بابل، وتبين وثائق العمل الصورة التالية: من ٢٢ كانون الأول عام ٥٢٢ ق.م إلى ٨ أيلول عام ٥٢١ ق.م أنها مؤرخة بداريوس ولكن اعتباراً من ٢٥ آب عام ٥٢١ ق.م ظهرت تواريخ لنبوخذ نصر الرابع ملك بابل، وأرسل داريوس قوات ضد بابل بقيادة الفارسي فيندافارنا. والوثائق الأخيرة المعروفة المؤرخة لنبوخذ نصر الرابع ترجع إلى ٣ تشرين الثاني عام ٥٢١ ق.م وفي ٢٧ تشرين الثاني أحرز فيندافارنا النصر الكامل على البابليين. ورفع المدعي أراخا - نبوخذنصر الرابع وأنصاره على الخوازيق والذين يخبر عنهم هيرودوت أيضاً، وسحقت الانتفاضة في بابل وأولى الوثائق المعروفة المؤرخة بداريوس حررت بتاريخ ٢٥ كانون أول عام ٥٢١ ق.م.[11]

وهكذا تتطابق بعض التفاصيل المهمة لكلتا الروايتين وتتطابقان بالأخص في مدة الانتفاضة: فهي بحسب هيرودوت ٢٢ شهراً وبحسب داريوس ووثائق العمل البابلية بين تملك غوماتا والقضاء التام على انتفاضة بابل نحو ٢٢ شهراً أيضاً، والشيء المميز هو أن هيرودوت لم يعرف شيئاً على أنه كانت هناك انتفاضتان

لا انتفاضة واحدة ولم يذكر في روايته شيئاً عن الملوك البابليين المدعين على العموم.

وهذا مفهوم: بالنسبة للبابليين كما تدل الوثائق المؤرخة يعتبر نبوخذنصر الثالث «نيدينتو - بعل» ونبوخذ نصر الرابع «اراخا» واحداً والشخص ذاته أيضاً لأنه لم يكن لنبوخذنصر الرابع «سنة بداية تملك» وإنما السنة الأولى فقط، أما لنبوخذنصر الثالث فعلى العكس لأنه لم يعش حتى رأس السنة الجديدة. وبعبارة أخرى لم يعرف البابليون العاديون تقريباً أي شيء عن ملوكهم ولم يشكّوا أنه تحت اسم واحد قد تملك عليهم شخصان مختلفان لم يلعبا أي دور فعلي. والانتفاضة نظمتها الأوليجاركية البابلية التي خابت آمالها بالفرس وأرادت منذ زمن بعيد أن يكون لها ملوكاً دمى مقربين على العرش ووجدت بعضهم في شخص المدعين ولكن كان عليها علاوة على ذلك أن تستميل الشعب إلى الانتفاضة وقبل كل شيء المحاربين الكلدانيين، ولهذا السبب اتخذ المدعون اسم نبوخذنصر ابن نابونيد وزيادة على ذلك يبقى غير معروف هل وجد عموماً مثل ذلك الشخص في الواقع؟ أو ببساطة كان من اختراع الأوليجاركيين لكي يستميلوا إليهم شعب السلالة الملكية الكلدانية المشهورة. وبكلمات أخرى، أصبحت الفكرة - الثابتة - انتخاب الملك - عند الأوليجاركية البابلية عديمة الشعبية لدرجة أنه كان لا يسمح حتى بالتحدث عنها علناً، وهذا يدل على أن المدينة - الدولة البابلية القديمة ماتت وجميع محاولات تغليف[أ] جثتها كان محكوماً عليها بالفشل.

ولكن كيف عاش وماذا فعل المواطنون البابليون العاديون في ذلك الزمن المضطرب؟ إن الكثيرين منهم لم يلحظوا حتى الاحتلال الفارسي في عام ٥٣٩ ق.م الذي انطبع عند جمهور الساذجين فقط بسلسلة الأعياد المنظمة منذ البداية من قبل نابونيد وبيلشاصر ثم داريوس، هؤلاء الذين حدث في زمنهم شيء من التغيير الذي لم ينعكس بأي حال من الأحوال على حياة المدينة.

والآن اضطرت بابل أن تجرب الحرب الحقيقية بالنهب والمصادرة والاضطهادات التي تتبع الهزيمة. فأحداث عام ٥٣٩ ق.م لم تترك أي آثار في وثائق العمل، ومقابل هذا فإن تلك الآثار موجودة في عامي ٥٢٢ و٥٢١ ق.م ولكنها تتحدث لا عن النهوض الوطني وإنما عن استدرار الأرباح من هذا الاضطراب السياسي - الاجتماعي ووقاية الذات والممتلكات.

وبشهادة العلامة الكسندر دوماس جرت قبيل حصار باريس في عام ١٦٤٨ م من قبل القوات الملكية في عهد فرديناند الثالث محادثة بين الفارس دارتنيان الملازم

أ- Galvanise= يطلي بالزنك- الوتياء والمقصود هنا تغليف الجثة واعطاءها مظهراً مغايراً لحقيقتها- المترجم.

في قوات المسكيت[أ] الملكية ومادلين تيورلين - قال دارتنيان - إذا كان عندك أموال فاطمريها بسرعة وإن كان مجوهرات فخبئيها فوراً وإن كان هناك مديونون فابتزي أموالهم وإن كان هناك دائنون فلا تدفعي لهم.

- ولماذا أفعل ذلك /لماذا هكذا/؟

- لأن باريس ستتحول إلى كومة رماد مثل بابل! التي يجب أن تكونوا قد سمعتم عنها.

من الصعب القول ماذا قصد دارتنيان بخراب بابل وما سمعت عنه الحسناء مادلين ولكنه نصحها بأن تتصرف كما تصرف الكثير من البابليين أنفسهم في وقت مماثل عام ٥٢٢ ق.م.

كان ايتي - مردوك - بالات ابن نابو - آخي - إدين نجل اكيبي في أواخر خريف عام ٥٢٣ ق.م في مكان ما في إيران «على ما يبدو في عيلام» وهنا نجح في ٢٩ تشرين الثاني من عام ٥٢٣ ق.م بشراء جاريتين - صانعتي سجاد من السكان المحليين لقاء ٢.٣ من «٨٤٢غ» من الفضة وسماهما كاردارا وباتيزا وكان الوقت منذراً بالخطر، وكونه رجل أعمال شعر بما يتبع الزلازل الكبيرة، وفي الحقيقة سرعان ما استولى بارزي «باردي» على العرش الفارسي وأيتي - مردوك - بالات في - بابل فاستدان الأموال بقدر ما استطاع وهكذا استلم من عند شخص اسمه مردوك - شوم - اوتسور ابن ابلي نجل بعل - إيترو شخصياً وبواسطة أشخاص صوريين «اسميين» في مدة قصيرة عدة قروض بمبلغ إجمالي ٢٤.٥ من «٣٥٣.١٢ كغ» من الفضة واعتمد إيتي - مردوك - بالات على أن المقرضين يمكن أن يهلكوا وتبقى الأموال عنده.

وفي خريف عام ٥٢٢ ق.م لما صار واضحاً أن الانتفاضة البابلية محكوم عليها بالقضاء وما سيلي فشلها من نهب ومصادرات لا مفر منها عندئذٍ بدأ إيتي - مردوك - بالات يخفي أمواله باضطراب مودعاً إياها على شكل ودائع صغيرة في مصارف مختلفة آملاً أن يؤدي ذلك إلى الحد الأدنى من الخسائر التي لا بد منها بعد استيلاء الفرس على بابل، ونحج بإنقاذ الأموال أما الحياة فلا وقُتِلَ إيتي - مردوك - بالات في كانون الأول عام ٥٢٢ ق.م وأخيه إدين - نابو وكذلك الذي استدان منه مردوك - شوم - اوتسور وآخرون كثيرون من البابليين.

وقتلهم الفرس ليس لأنهم عصاة بل لأنهم أناس أغنياء جداً [12]وكان من عداد المنكوبين عائلة إيلوتا - باني الكلدانية الأصل فاثنان من أفرادها سيريكتو - مردوك وابنه نابو - بوليتسو إما ماتا في ميدان المعركة آو قضي عليهما بالخازوق في نهاية

أ- Musketeer= جندي مسلح بمسكيت والمسكيت بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة- المترجم

عام ٥٢١ ق.م ولكن قريبهما موشيزيب - بعل - اوتسيليل وجد نفسه مفلساً لأن ممتلكاته أصيبت بشدة خلال الأعمال القتالية. فقد قطعت أشجار النخيل والفاكهة وصار يزرع الشعير بدلاً منها مما أدى إلى تدني الإيجار بصورة حادة. وقبيل سحق الانتفاضة الأولى في ٢٤ تشرين ثاني عام ٥٢٢ ق.م نجا موشيزيب - بعل من المصادرة بنقل واحد من عقاراته وعبيده أيضاً إلى اسم زوجته آمتي - سوتيني وهكذا فعل الكثير من المواطنين البابليين بأنفسهم في زمن الصدمة.[13]

وبعد أن وطد داريوس سلطته على الإمبراطورية الأخمينية أجرى سلسلة من الإصلاحات المهمة التي تناولت بابل أيضاً.

فقد قسم جميع أراضي دولته إلى ٢٠ إقليماً - مرزبانية - وفرض على كل منها أتاوة دائمة محددة المقدار، وألغى توحد الإمبراطورية البابلية الذي ظل قائماً في عهد قورش وقمبيز، وشكلت بابل مع آشور ٢١ مرزبانية ملزمة بدفع أتاوة سنوية ١٠٠٠ تالنت «٣٠.٣ طناً» من الفضة و٥٠٠ خصي - صغير للملك الفارسي وسَلَخَ كل ما وراء النهر عن بابل وشكل مع قبرص ٥ مرزبانيات تدفع ٣٦٠ تالنت «١٠.٩٠٨ طناً» من الفضة أتاوة في السنة، وأخيراً ألزم العرب الذين لم يخضعوا أبداً لحكم نابونيد وتحرروا الآن من حكم بابل بتقديم ١٠٠٠ تالنت «٣٠.٣ طناً» من البخور سنوياً إلى الملك الفارسي.

وكان عند داريوس نية لنقل حامي - بابل - التمثال الذهبي للإله بعل - لأن الوجود الدولي لبابل ذاتها قد زال، ولكنه على كل حال أقلع عن هذه الفكرة واتخذ لقب ملك بابل وأبقى على الاستقلال الذاتي البابلي الوهمي، إلا أن هذا لم يمنعه من احتقار الديانة البابلية والإله مردوك علناً. ولم يحتفل داريوس في بابل بأي من أعياد الآلهة سوى بعيد الإله الإيراني الأعلى أهورا مازدا، وفي غضون ذلك اتخذ داريوس في مصر بصفته فرعوناً اسم العرش المصري وأولى الآلهة المصرية تشريفات رسمية.

والبابليون بدورهم قابلوا داريوس بصورة سيئة بالكراهية المكتومة ونال هذا الملك منهم كما من غيرهم من الخاضعين للإمبراطورية الفارسية لقب «البياع» وعن طمعهِ وشرهه للمال ترددت النكات ومن إحداهن - تلك التي عن ضريح الملكة نيتوكريس - التي تعرّف عليها القراء. وسمعة داريوس هذه شكلتها من دون أي شك إصلاحاته المالية التي وضعت أولاً على بابل والمرزبانيات الأخرى وعلى مدى سنوات السيادة الفارسية أتاوة باهظة منتظمة تلك التي لم يتعود عليها البابليون.

وقام الفرس بمصادرات ضخمة للأراضي من المواطنين البابليين ووزع قسم منها على الأرستقراطيين الفارسيين والضباط والموظفين ومنذ ذلك الوقت ظهرت الملكية الفارسية للأرض في بابل، وهكذا صار العقيد الفارسي بهاسار مالكاً لقسم من عقارات عائلة اكيبي على قناة توباشو وتبعاً لذلك أخذت كل العقارات اسم «بيت -

راب - كاتسير «أي بيت العقيد» واستطاع مردوك - ناصر - أبلي رأس عائلة اكيبي بعد مصرع ايتي - مردوك - بالات اكتساب مجير «أي شخص حامٍ» بشخص هذا الفارسي وبواسطته تجنب الخسائر المتواصلة[14] والقسم الآخر من الأراضي المصادرة تم استثمارها لأصحاب حصص الأرض المكلفين بالقيام بالخدمة العسكرية. وسميت هذه الأراضي المستثمرة وفقاً لنوع الخدمة مثلاً «بيت القوس» و«بيت الحصان» و«بيت المركبة»[أ] ويجند أصحاب الحصص سواء أكانوا بابليون بابليون أو من الأجانب الذين سكنوا في بابل من الأسرى البابليين سابقاً.

وبدلاً من تأدية الخدمة كانوا يدفعون الضرائب عادة أو يقدمون البديل عنهم وعلى حساب أصحاب الحصص نشأت وتعززت طبقة ملاك الأرض المتوسطين التي بدأت بزحزحة البابليين والكلدانيين الأصليين، وكان أحد هؤلاء الملاكيين الجدد شاتينو ابن بالاستو نجل بعل - ياو ويستدل من التسمية «بعل= الإله - ياو= يهوه» على أنه يهودي متأبلل «صار بابلياً» كان في أيام قورش وقمبيز ساكناً «من سكان» متواضعاً في مدينة بارسيب، وفي عهد داريوس أصبح غنياً بسرعة حيث اشترى بفترة قصيرة من مفلس بابلي مالا يقل عن سبعة عقارات وتحول إلى مالك ميسور.[15]

ومثل هؤلاء الناس مثل شاتينو غير المرتبطين بالتقاليد البابلية أصبحوا بفضل داريوس عليهم عماداً للسيادة الفارسية على بابل، وعلى العكس منهم لم يعتمد داريوس على البابليين والكلدانين الأصليين وأغرقت بلاد بابل بالجواسيس والمخبرين الذين تجسسوا على السكان بانتباه.

وإلى جانب دفع الأتاوة كان على البابليين أداء الخدمة العسكرية وافتدى الناس الميسورون أنفسهم منها باستئجار البدائل عنهم وهكذا مثلاً فعل مردوك - ناصر - ابلي رأس بيت أكيبي في عام ٥١٧ ق.م الذي كان عليه أن يلتحق كقائد مركبة لقمع الانتفاضة في عيلام[16] ولكن البابليين الآخرين اضطروا لأن يخدموا ومات الجنود البابليون من أجل ملك الملوك الفارسي في عيلام والهند وفي فراكيا وسهوب السكيث عند البحر الأسود وعند أسوار ميليتيا وفي سهل الماراثون.

- وجملة القول، في كل مكان حيث خاض داريوس حرباً. أما مزارعهم وحقولهم فكانت في ذلك الوقت في تدهور.

- ولكن التضخم - كان أصعب صدمة للبابليين - ووصل انخفاض سعر الفضة إلى أشده في عهد الملك داريوس «٥٢٢-٤٨٦ ق.م» عندما ارتفعت الأسعار بالمتوسط من ٢-٣ أضعاف مقارنة بأسعار منتصف القرن السادس قبل الميلاد وأفقد التضخم الثقة بالثروة النقدية

أ- المقصود بنوع الخدمة هو صنف القوات الذي يخدم فيه المكلف فبيت القوس هو سلاح الرماة النبالة وبيت الحصان سلاح الفرسان وبيت المركبة سلاح المركبات القتالية- المترجم

وصدم التجار والمصرفيين ومالكي البيوت ووكلاء الأوقاف والحرفيين وملاك العبيد الذين يؤجرون العبيد أو يحررونهم مقابل الجزية خاصة وهذا يعني جميع الذين يتلقون الإيرادات بشكل نقدي، وصار مالكو العقارات بوضع أفضل من الذين يتلقون إيراداتهم بشكل عيني، ولم تتدنَ فائدة العمل الزراعي السلعية فحسب وإنما ارتفعت لأن أسعار منتجات العمل الزراعي ازدادت بالدرجة الأولى وبقيت في الوقت نفسه أسعار الأرض ثابتة /مستقرة/ ولذلك تسارعت عملية تعبئة ملكية الأرض للغاية وصار من الأفضل استثمار الأموال في الأرض.

وظهر التضخم كنتيجة حتمية للتطور الاجتماعي - الاقتصادي للبابليين، وكما في كل مكان كان وليداً للانخفاض السعلي «البضائي» وتضخم الكتل النقدية المتداولة نتيجة لازدياد النفقات غير المنتجة وهذا يعني ازدياد الاحتياج الطفيلي.

وازداد التضخم تدريجياً بقدر محاصصة الأوساط الفنية الطفيلية في المجتمع التي تنفق الأموال الباهظة على الرفاهية. وعجل الاحتلال الفارسي هذه العملية وفاقمها. ووقعت في أيدي الفرس غنائم هائلة منهوبة من البلدان المحتلة وتلقوا جزية عظيمة من الشعوب المغلوبة. واستقر قسم من هذه الثروات بشكل سبائك من الذهب والفضة في الخزائن الملكية في سوز وبيرسيبوليس واكباتان، ولكن حصة غير قليلة منها أصابت الارستقراطيين الفارسيين والموظفين والعساكر ولم يقتصد الفرس بالنفقات واعتادوا بسرعة على الرفاهية وتعلموا تبذير الأموال التي وصلت إليهم بسرعة. ووجدت أموال كثيرة للغاية في التداول بينما تدنى إنتاج السلع بسبب إفلاس الرعايا الفرس[أ] نتيجة للنهب والاغتصاب الذي يقوم به المحتل وادي ذلك إلى الارتفاع الشديد للأسعار في عهد داريوس.

إن التضخم بالمقارنة مع الأسباب الأخرى أنزل ضربة قاتلة بالتابعية البابلية وتفاقمت أزمة المجتمع البابلي القديم وحصل الشيء نفسه في بلدان الحضارة القديمة التي أصبحت مرزبانيات فارسية. وانتعش الفرس ووطدوا النظام القديم العاجز، وعلاوة على ذلك تحولوا إلى طفيليين نُزّلاً على رقبة الشعوب المقهورة وفقط عززوا الانهيار والاختلال في الشرق القديم الهرم ولا سيما في بابل. فالأورليجاركية البابلية التي علقت الآمال على الفرس أخطأت الحساب وفي هذه المرة بقسوة بحيث لا يمكن أن يعوض.

وإن شيخوخة الشرق القديم ووهن الإمبراطورية الفارسية صارا واضحين لما اصطدما مع الغرب الناهض بشخص المدن الهيلينية.

فاليونانيون بالنسبة إلى البابليين والمصريين والفينيقيين والسوريين كانوا شعباً بربرياً متخلفاً، ولكن الشعب اليوناني اجتاز الثورة التي أدت إلى الانتصار على النظام القديم الذي دخل هو نفسه في الشرق القديم في مرحلة الأزمة، وكان المجتمع

أ- المقصود بالرعايا هنا الشعوب الخاضعة للحكم الفارسي- المترجم.

اليوناني سليماً كامل القوى لما اضطر في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد إلى الدخول في الصراع مع الإمبراطورية الفارسية في سهل الماراثون وبالاتيا وفي مياه سلاميس وميكالي ويورميدون[أ] وحطم الهيلينيون جحافل الملوك الفارسيين داريوس واحشويرش، وكانت هزيمة الفرس إشارة لانتفاضات الشعوب المغلوبة، ففي الأعوام «٤٨٦-٤٨٤ ق.م» انتفضت مصر واقتدت بها بابل حيث ظهر في آب عام ٤٨٤ ق.م بعل - شيماني الذي ادعى لقب «ملك بابل، ملك البلدان» وهذا يعني بلقب الملك الفارسي العظيم، وقمع الفرس بسهولة هذا العصيان. وفي تشرين الثاني عام ٤٨٦ ق.م توفي الملك داريوس وجلس على العرش الفارسي ابنه احشويرش «اكزركسيس» «٤٨٦-٤٦٥ ق.م» الذي لما انتهى من تسوية الانتفاضة في مصر بدأ بالإعداد لحملة عظيمة على هيلينيا «اليونان» وفي هذا الوقت في خريف عام ٤٨٢ ق.م أثارت بابل مرة أخرى انتفاضة وأعلنت شخصاً اسمه شمش - اريبو ملكاً واستطاعت الصمود نحو الشهرين وقمعت الانتفاضة دون عناء كبير. ثم تلاها التنكيل بمقدار ما بالمنتفضين بقدر ما بالبابليين أنفسهم ونقل أحشويرش من إيساجيله التمثال الذهبي للإله بعل حامي بابل وانتهى وجود المملكة البابلية التي أسسها الزعيم «القائد» العموري سوموا بوم في عام ١٨٩٤ ق.م بصورة نهائية هذه المرة وألغيت الجنسية البابلية وفقد البابليون[17] أراضيهم حيث صادروها ووزعوها على الفرس وصارت بابل مرزبانية فارسية عادية. وصار سكانها تابعين ودافعي أتاوة للملك ويعملون مستأجرين وعمالاً زراعيين في أراضي الملاكين الفارسيين، والأوليجاركية البابلية التي هي المجرم المباشر في هذه الكارثة هي نفسها ماتت تحت أقدام الغزاة وبقيت بابل التي فقدت نظام دولتها واستقلالها الذاتي مستمرة كمدينة كبيرة وعاش فيها الملوك الفرس من وقت لأخر.

ولكن المدينة تضاءلت وخبت وفقدت أهميتها الاقتصادية السابقة، وفي القرون «٥-٣ ق.م» تقدمت إلى المركز الأول في بابل مدينتا نيبور وأوروك اللتان احتفظتا بوضع المدن - الدول وبجنسيتهما.[18]

وفي عام ٣٢٤ ق.م انتهت حملة الاسكندر المقدوني وجاء الفاتح العظيم إلى بابل التي اختارها عاصمة لدولته الهائلة. وبدا أن المدينة سيكون لها ازدهار جديد لم يسبق له مثيل ولكن الاسكندر مات في صيف عام ٣٢٣ ق.م في القصر الملكي الذي بناه نبوخذ نصر الثاني وبدأ الصراع بين خلفائه في الوقت الذي انتقلت فيه بابل من يد ليد وتعرضت فيه للتخريب.

وفي عام ٣١٢ ق.م استوى في بابل سلوقس أحد الخلفاء مؤسساً مملكة واسعة في آسيا الدنيا، إلا أن عواصم دولته صارت مدناً هيلينية مؤسسة من جديد وهي سلوقية على الدجلة «في مكان مدينة اوبيس» وإنطاكية على العاصي «في سورية» وليس مدينة بابل.

أ- مارثون بالاتيا- سلاميس- ميكالي- يورميدون كلها اسماء لمناطق ومدن وسواحل يونانية- المترجم

وتحولت بابل أيضاً إلى مدينة مُهلّنة وحتى أقامت لها مسرحاً يونانياً. ولكن ذلك لم ينقذها من السقوط فسرعان ما حجبتها سلوقية. وسكن قسم من البابليين الأكثر نشاطاً وغنى فيها.

وغزا البارتيون بابل في عام ١٢٩ ق.م ودمروها واحرقوها في عام ١٢٦ ق.م لتعاطفها مع الهيلينيين ولم تستطع المدينة القديمة أن تتعافى من ذلك فأقفرت وهجرها السكان وبقي منها حتى بداية العصر الميلادي طلل واحد.

وفي بداية القرن الأول الميلادي كان في مكان بابل قرية صغيرة سكانها من اليهود والمسيحيين السوريين الذين دلّوا السياح والرحالة على خرائب قصر نبوخذ نصر الثاني وبقايا برج بابل وخندق الأسود و «الثور المجنح» ثم ابتلعت الأرض هذه البقايا وبقي من بابل تل واحد استخرج منه العرب في القرون الوسطى الآجر لبناء بغداد والمدن والقرى الأخرى المجاورة.

وهكذا اختفت بابل دون أن يشعر بها أحد من على وجه الأرض. وفقط مكنت التنقيبات الأثرية والعمل الدؤوب لعدة أجيال من العلماء الآشوريين في القرنين التاسع عشر والعشرين خطوة فخطوة من استعادة تاريخ هذا الشعب المشهور الوريث المباشر للسومريين مؤسسي أقدم حضارة على الأرض مع المصريين لذَّاتهم.

obeikandl.com